بمناسبة عيد الظهور الإلهي

معمودية الرب يسوع في الأردن

لأجلنا اعتمد، ولأجلنا مُسح بالروح القدس
لأنه صار إنساناً لأجلنا

د. جورج حبيب بباوي

٢٠١٤

www.coptology.org

لأجلنا اعتمد، ولأجلنا مُسح بالروح القدس
لأنه صار إنساناً لأجلنا

عندما نشرتُ مقال "لماذا اعتمد يسوع" في مجلة مرقس[١]، مُنعتُ من التدريس لمدة عام، وكان قرار المنع مبنياً على أن عيد الغطاس (كما درجنا على استخدام الاسم في تراثنا الشعبي) هو استعلان الثالوث فقط.

كان ما ضايقني هو التغاضي عن نزول الرب نفسه إلى مياه الأردن وصعوده ثم حلول الروح القدس عليه وما يعنيه ذلك بالنسب للبشرية. وكان ما ضايق الذين كانوا وراء قرار منعي من التدريس في الكلية الإكليريكية هو الاقتباسات الكثيرة من دكاترة العقيدة أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير عن قبول الرب يسوع الروح القدس لأجلنا، ذلك القبول الذي لم يكن قبولاً "مواهبياً" حسب الإدعاء، بل كان حلول أقنوم الروح على ناسوت الرب لكي يمسحه ويعلنه "المسيح"، وكان هذا بمثابة دليل آبائي على حلول الروح القدس نفسه علينا.

لكن لا غضاضة لدينا من أن نُعيد بحث الموضوع من أجل السؤال الذي لا زال يتردد ويصلنا على موقع الدراسات القبطية:

– ما هي علاقة سر المعمودية بسر المسحة أو الميرون.

ولنعد إلى القديس أثناسيوس الذي يشرح الإيمان على هذا النحو:

> "لأجلنا قدَّس ذاته وفعل ذلك عندما تأنَّس، ومن الواضح أن نزول الروح عليه في الأردن كان نزولاً علينا نحن؛ لأنه لبس جسدنا. ولم يحدث هذا

---

(١) هذا المقال كان أصلاً جزء من رسالة الدكتوراه المقدمة منا إلى جامعة كمبريدج ١٩٧٠ بعنوان الخليقة الجديدة في المسيح يسوع حسب لاهوت وطقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، والجزء الأول من هذه الرسالة منشور على موقع الدراسات القبطية واللاهوتية www.coptology.com راجع ص ١١٤ وما بعدها.

لكي يتقدم الكلمة وإنما مرةً ثانيةً لتقديسنا لكي نشترك في مسحته، ولكي يقال عنا نحن "أنتم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم" (١كو ٣: ١٦)" (ضد الأريوسيين ١: ٤٧).

* الروح حلَّ عليه "ونزل علينا نحن لأنه لَبِسَ أو حمل جسدنا".
* ونحن نشترك في مسحته لأننا صرنا هياكل الله.

كنا فيه، أي كانت إنسانيتنا فيه، أي في أقنوم الكلمة:

يكمِّل القديس أثناسيوس الشرح:

"لأن الرب عندما اغتسل في الأردن كإنسان، كنا نحن الذين اغتسلنا فيه وبواسطته (به) وعندما قبل الروح كنا نحن الذين بواسطته قبلناه (الروح)" (ضد الأريوسيين ١: ٤٧).

معمودية الرب يسوع وعدم انفصال المعمودية عن سر المسحة:

كان عملاً واحداً نزل الرب إلى مياه الأردن، وعندما صعد حلَّ عليه الروح القدس، ومُسح فصار "المسيح"، هذا لأجلنا، ولذلك السؤال الذي وصلنا أكثر من مرة عن علاقة المعمودية بسر المسحة أو سر الميرون يجب أن نجيب عليه من واقع التسليم الكنسي نفسه، ذلك التسليم الذي لا يعرف انشطار السرائر لا سيما عندما تُحسب بالأرقام، لا حسب التدبير. ولعل تنوع الأسماء هو الذي أدخل في الوعي ازدواجية الانضمام إلى جسد المسيح الكنيسة في سرين منفصلين، لذلك السبب بعد أن نطهِّر قلوبنا من تعليم العصر الوسيط عن سر المعمودية وسر التثبيت، وهو الاسم الشائع في لاهوت العصر الوسيط الذي كان يُعطي سر حلول الروح القدس بعد المعمودية ربما بسنوات أو بشهور، ولذلك سُمي "التثبيت" *Confirmation* ولكن الاسم الكنسي الأصيل حسب الآباء والليتورجية هو "سر المسحة"، والشرح هو من رسائل القديس أثناسيوس الرسولي إلى سرابيون عن الروح القدس (الترجمة العربية مايو ١٩٩٤)، وإن كنا قد أوردنا بعض اقتباساتٍ أخرى للقديس كيرلس الأورشليمي، وردت في نهاية المقال.

نعمة واحدة من الثالوث الواحد:

"**كل شيء من الآب بالابن في الروح القدس**"، هو التسليم الكنسي. الآب هو المصدر، والابن هو الوسيط والرأس والنهر، والروح هو الواهب والمانح، ولكن الكل هو من الله، الثالوث.

> "النعمة التي من الآب هي واحدة وهي تتم بالابن في الروح؛ إذ الإلوهة واحدة وإلهٌ واحد على الكل ربًّاً للكل وفي الكل (أف ٤: ١٦)" (الرسائل إلى سرابيون عن الروح القدس ١: ١٤ ص ٥٧).

وأيضاً:

> "ثالوث واحد قدوس كامل يُعترف بلاهوته في الآب والابن والروح القدس .. فالآب بالكلمة في الروح القدس يعمل كل الأشياء" (المرجع السابق ١: ٢٨ ص ٨٢-٨٣).

النعمة من الثالوث وتُعطى في الثالوث:

ولأن منهج العصر الوسيط غير معروف عند الآباء، لذلك يكتب المعلم السكندري:

> "المواهب التي يوزِّعها الروح لكل واحد تُمنح من الآب؛
> لأن كل ما هو من الآب هو من الابن أيضاً.
> إذن كل الأشياء التي تُعطى من الابن في الروح هي مواهب الآب،
> وحينما يكون الروح فينا، **فالكلمة الذي يُعطي الروح يكون أيضاً فينا**.
> الآب (كائن) في الابن، وهذا لأنه قال سنأتي أنا والآب ونصنع عنده منزلاً" (المرجع السابق ١: ٣٠ ص ٨٦-٨٧).

مؤكداً بعد ذلك:

> "النعمة والهبة تُعطى في الثالوث من الآب بالابن في الروح القدس. وكما أن النعمة المعطاة هي من الآب بالابن، هكذا فإنه لا يكون لنا شركة في العطية إلَّا في الروح القدس، لأننا حينما نشترك فيه، تكون لنا محبة الآب

ونعمة وشركة الروح نفسه" (المرجع السابق، ص ٨٧).

سر المسحة أو الميرون:

أولاً يقول القديس أثناسيوس:

"الروح لا يعطي الابن،

بل

الابن هو الذي يعطي الروح" (المرجع السابق ٤: ١٧).

ذلك هو التدبير الإلهي؛ لأن الرب جاء وردَّ إلينا عطية الروح القدس، ولذلك سلَّم الربُّ لنا عطية الروح القدس.

ويؤكد أثناسيوس –العظيم حقاً– أن إلوهة الثالوث هي إلوهة واحدة "في الآب وفي الابن وفي الروح القدس نفسه" (المرجع السابق ٤: ٣ ص ١٢٤).

ووحدة جوهر الثالوث هي السبب الأول والأخير في كتابة هذه السطور في الرسالة الرابعة إلى سرابيون:

"في الثالوث نفسه معمودية وإيمان واحد،

وعندما يرسل الآب الروح، فالابن –بواسطة النفخ في التلاميذ– يعطيهم الروح، لأن كل ما للآب هو للابن" (يو ١٦: ١٥).

نحن ننال التبني من الابن في المعمودية، والفاعل والواهب هو الثالوث،

وليس الابن وحده.

لأننا عندما نشترك في الروح تكون لنا نعمة الكلمة،

وفي الكلمة تكون لنا محبة الآب،

وكما أن نعمة الثالوث واحدة، لذلك فالثالوث غير منقسم".

(المرجع السابق ص ١١٦).

"لأن الثالوث هو اساس الكنيسة" (المرجع السابق، ص ١١٦–١١٧).

"وهو سبب التعميد باسم الثالوث" (المرجع السابق، ٣: ٦ ص ١١٦).

ما هو طقس أو ترتيب الاكتمال؟

الكمال هو كمال الوجود المسيحي؛ لأن الوجود الإنساني الذي لا شركة له في الثالوث، هو وجودٌ ناقص، هو ذات الوجود الآدمي الذي لأجله تجسَّد الرب لكي يحرره ويفديه من الأسر، ويرده إلى الشركة. ولذلك، طقس الانضمام إلى الكنيسة، هو طقس تكميل الكيان الإنساني الذي استنار في الانضمام إلى الموعوظين، والآن يدخل، ليس إلى مجال شرح الإيمان، بل إلى قبوله في القلب وفي الجسد والروح معاً.

التكميل هو طقس الانضمام إلى اللاهوت، أي إلى الثالوث. ولذلك، الذي ينكر وحدة جوهر الثالوث، تكون معموديته غير صحيحة، وهو ما جعل القديس أثناسيوس يرفض معمودية الأريوسيين ويقول:

> "إن التكميل الذي تحسبون أنكم تمارسونه، ليس انضماماً تاماً إلى اللاهوت لأنكم تمزجون المخلوق باللاهوت .." (ص ٢٨٤).

ويشرح معنى هذا الكلام:

> "الايمان بالثالوث –المسَلَّم إلينا– يجعلنا متحدين بالله، وكما أن ذلك الذي يستبعد (يرفض) أي واحد من الثالوث، ويعمِّد باسم الآب وحده، أو باسم الابن وحده، أو باسم الآب والابن بدون الروح القدس، لا ينال شيئاً، بل يظل غير حيٍّ وغير مكتمل (الوجود) (١: ٣٠ راجع ترجمة د. موريس).
>
> "بل يظل غير فعَّال (والأفضل غير حي)، وغير مكتمل الوجود؛ لأنه لم ينل شركة في الثالوث" (راجع ٨٥).

وبعد ذلك يظهر أن فصل أي أقنوم، يجعل مَن يفصل "بدون إله" (ص ٨٦)؛ لأنه أضاف خالق مع مخلوق، وبذلك هدم وحدة جوهر الثالوث.

قوة الوجود أو الثبات:

يقول أثناسيوس إن الخلق هو عمل الثالوث.

> "لأن الآب يخلق كل الأشياء بالكلمة في الروح؛
> لأنه حيث يكون الكلمة، فهناك أيضاً الروح".

ثم:

"المخلوقات تنال قوة البقاء (الوجود) من الكلمة بالروح" (٣: ٥ ص ١١٤).

ويكرر ما سبق وذكره:

"توجد معمودية واحدة تعطى فيه (الثالوث)،

وواحدٌ هو التكميل في يسوع المسيح ربنا (٣: ٧ ص ١٣٠).

وهنا يمكن الإجابة على السؤال عن المعمودية والمسحة ..

- فالابن يعطي الروح القدس لنا،

- والروح يعطي الابن لنا.

وفي الفقرة ٣ من الرسالة ٣ ابتداء من ص ١١١ يؤكد المعلم الكنسي:

* "الروح مسحة وختم" (١يوحنا ٢: ٢٧). والمسحة لأن الرب مُسح بعد صعوده من مياه الأردن.

* "المسحة هي مسحة الابن، حتى أن الذي عنده الروح يقول نحن رائحة المسيح الذكية" (٣: ٣ ص ١١)، ورائحة المسيح الذكية هي اشارة إلى العطور التي توضع في زيت المسحة أو الميرون.

* "والختم يُعطى بصحبة الابن، **حتى أن الذي يُختم يكون صورة الابن**". **فالروح الخالق يعيد مع الابن تكوين الصورة الجديدة، أي صورة الرب نفسه، وهي الصورة الإلهية التي وُهِبَت في الخلق الأول. والآن تصبح صورة المسيح، وليس صورة آدم لا قبل السقوط (ولا بعد السقوط).**

* "من له الروح القدس له الابن، وإذ يكون له، فهو هيكل الله" (ص ١١١).

وفي الفقرة ٤ من نفس الرسالة يؤكد وحدة عمل الروح القدس الذي يجمع الكل إلى جسد واحد الكنيسة (١كو ١١: ١٣)، ص ١١٢ – ١١٣).

وفي الفقرة ٥ من نفس الرسالة يقول: "الروح ليس خارج الكلمة، بل إذ هو في الكلمة، فهو في الله بالكلمة". وبقية العبارة تدحض كل تعليم عن المواهب لأن المعلم يكتب بوضوح –كما لو كان قد رأى محنة التعليم عندنا–: " وهكذا تعطى المواهب

الروحية في الثالوث"، فلا موهبة خارج الثالوث. ثم يؤكد بعد ذلك: "الروح نفسه والرب نفسه والله نفسه، هو الذي يعمل الكل في الكل" (١كو ١٢: ٤-٦)؛ لأن الآب نفسه بالكلمة، في الروح يعمل كل الأشياء ويعطيها" (ص ١٦٥).

درسٌ من التاريخ الكنسي والليتورجية:

جاء اسم "المسيحي" من "المسيح"، واسم "المسيح" من المسحة. وأقدم شهادة وصلتنا من التاريخ هي شرح العلامة أوريجينوس لإنجيل يوحنا: ".. نُدعى مسحاء لأننا نُمسح في المعمودية" (٦ مجلد ١٤: ٢١٢).

لكن ما يهمنا بالأكثر هو ما شرحه القديس كيرلس الأورشليمي (العظات – سلسلة النصوص الليتورجية – تعريب الأب جورج نصور ١٩٧٦)، وهذا الأسقف عاش في الفترة ما بين ((٣١٤-٣٨٧) (وقد راجعنا بعض الكلمات على الأصل اليوناني) في العظة ٢١ وهي العظة الثالثة على شرح السرائر، وهي خاصة بمسحة الميرون يقول القديس كيرلس الأورشليمي، وقد قسَّمنا النص لسهولة قراءته:

> "ها أنكم، اعتمدتم في المسيح ولبستم المسيح" (غلا ٣: ٢٧) فأصبحتم على مثال صورة المسيح ابن الله (رو ٨: ٢٩) لأن الله اختارنا لأن نكون أبناء بالتبني (أفسس ١: ٥) وجعلنا على صورة جسد المسيح المجيد (فيلبي ٣: ٢١).

شركاء المسيح ومسحاء:

> "وبما أنكم أصبحتم شركاء المسيح" (عب ٣: ١٤) فأنتم مدعوون بحق "مسحاء"، وعنكم قال الله "لا تمسوا مسحائي" (مز ١٠٤: ١٥) إنكم أصبحتم مسحاء بتقبلكم ختم الروح القدس كل شيء فيكم تم بالمثال[١] بما أنكم صورة المسيح".

---

(١) الأفضل المثال من الامتثال لأن الكلمة اليونانية هي αντιτυπον.

معمودية الرب في الأردن:

"عندما تعمَّد المسيح في نهر الأردن. ومنح المياه ملامسة إلوهيته، صعد منها، فَحَلَّ الروح القدس بذاته عليه. واستقر المشابه على المشابه له. وأنتم كذلك، عندما خرجتم من جرن المياه المقدسة، قبلتم الميرون. وهو الصورة الحقيقية لمسحة المسيح وأعني بها الروح القدس الذي تحدث عنه الطوباوي اشعياء؛ إذ تنبأ عنه وتكلم على لسان الرب قائلاً: "إن روح السيد الرب عليَّ؛ لأن الرب مسحني وأرسلني لأبشر المساكين (الفقراء)" (أش ٦١: ١ – لو ٤: ١٨)".

مسحة المسيح من الله الآب نفسه:

"لأن المسيح لم يُمسح بزيت، أو بمسحة مادية على يد إنسان، لكن الآب الذي سبق واختاره ليكون مخلص العالم كله، مَسَحَه بالروح القدس على حسب قول بطرس "يسوع الناصري الذي مسحه الله بالروح القدس" (أع ١٠: ٣٨)" وبعد أن يقتبس كلمات مزمور (٤٥: ٧-٨ – عب ١: ٨-٩)، يذكر صلب الرب وقبره وقيامته.

على مثال المسيح:

"أنتم في المعمودية اعتُبِرتم جديرين بأن تُصلبوا وتُدفنوا وتُقدَّموا معه على مثاله، وكذلك هي الحال بما يخص المسحة، لقد مُسح المسيح بزيت البهجة الروحي، أما أنتم فمُسِحتم بالدهن وصرتم رفاق وشركاء المسيح".

المسحة ليست مسحة زيت عادي:

"كما أن خبز الإفخارستيا بعد استدعاء الروح القدس لم يعد خبزاً عادياً، وإنما صار جسد المسيح، كذلك المسحة المقدسة لم تعد بعد استدعاء (الروح القدس) مسحة بسيطة عادية".

مسحة الميرون تعطي إلوهية الروح القدس:

"إنه عطاء المسيح، وقد أصبح بحلول الروح القدس، مانحاً لاهوته .. وفي الوقت الذي يُمسح فيه جسدك بالمسحة المنظورة، تقدَّس نفسك بالروح القدس المحيي" (العظة ٣: ١-٤).

استرداد الهوية الأبدية:

لحياةٍ أبديةٍ دعانا الرب يسوع، ولذلك نحن نشترك في حياته بعد أن رفع الدينونة والموت وأعطانا الحرية والفداء من العبودية، ووهبنا فيه هو، التبني وميراث الملكوت ثم أعطانا الروح القدس.

أولاً: نحن مسيحيون بسبب مسحة الميرون؛ لأننا نُمسح لكي نكون "رفاق وشركاء المسيح" كما قال كيرلس الأورشليمي.

ثانياً: نحن ننال عطيةً واحدةً في سر المعمودية وسر الميرون معاً بلا انفصال؛ لأن -حسب شرح القديس أثناسيوس- يظهر لنا تدبير الخلاص:

* الابن له المجد يعطي لنا الروح.
* الروح القدس الرب المحيي يعطي لنا الابن.

ولا توجد فواصل بالمرة ولا ازدواجية؛ لأن "النعمة واحدة" وما يجب أن يستقر في الوعي هو أن السرائر هي:

* شركة عمل الثالوث؛ لأن كل شيء من الآب بالابن في الروح القدس.
* ما يمنحه الآب، فهو بالابن. وما يعطيه الابن، فهو بالروح. ولعل أفضل ما يُقال هو إننا في الإفخارستيا وحسب التدبير، ندخل شركة عمل الثالوث الواحد في الأنافورا لكي يعطي لنا الابن جسده ودمه ولكن بالروح القدس الذي يُستدعى على الخبز والخمر.

ما هو المقصود بكلمة مثال؟

تعاني كل الكلمات اللاهوتية من نقصٍ شديد في الاستعمال الدقيق، ولذلك

الكلمة تعني ثلاثة أشياء ضرورية للخلاص:

أولاً: إن ما حدث في تدبير الخلاص، هو ما حدث في التاريخ نفسه في الواقع، فهو الحقيقة التي لا تعاد ولا تتكرر.

ثانياً: إذا رسخت هذه الفكرة، أصبح من الواضح أن ما يحدث في السرائر: المعمودية – الميرون – الإفخارستيا، هو شركتنا نحن فيما هو حادث؛ لأن أفعال الخلاص ليست هي ما حدث في الماضي، بل ما هو حادثٌ فعلاً. وشركتنا لا تعني أن الرب سوف يُصلب أو يموت؛ لأن الموت والخطية معاً قد أُبيد كلاهما، ولكننا نحن البشر الذين نتغير في كل جيل، ندخل في مثالِ ما حدث بأن نقدِّم ما لدينا من مياه وزيت وخبز وخمر؛ لكي –بالتقديم– **نشترك فيما أُكمِلَ، وفيما حدث لكي يتم فينا نحن.**

ثالثاً: من أجمل ما سمعت من القمص مينا المتوحد أن تدبير الخلاص حدث ويحدث دائماً لكي يتم ما حدث فينا نحن بواسطة ما حدث في يسوع رب المجد، وبواسطة يسوع لأننا نشترك فيه.

وعلى سبيل المثال يقول رسول المسيح بولس عن الرب: "إنه أخلى ذاته وأخذ صورة العبد" (فيلبي ٢: ٦)، ولكن "إخلاء الذات" حدث بالتجسد، ويحدث عندما يأتي إلينا الرب نفسه لكي يغسل أدناس خطايانا، فهو في مجده الإلهي يخلي ذاته لكي يسكن فينا. وحسب النص القبطي واليوناني نفسه: "من يأكل جسدي ويشرب دمي يكون فيَّ وأنا أكون فيه"؛ لأن الكينونة هي العمل الإلهي الذي قال عنه أثناسيوس العظيم: إن الثالوث يمنح الكائنات "قوة الوجود أو البقاء"، وأن هذه القوة هي قوة "الاكتمال" لأن نبقى في شركة الثالوث الذي استُعلِن عند الأردن؛ لكي يُعلِن ثالوثاً واحداً في مناسبة تبني الإنسانية في رب المجد المتجسد.

كل عام وأنتم بخير ،،،

دكتور

جورج حبيب بباوي

يناير ٢٠١٤